التجربة الشبابية في فلسطين

أنس البرغوثي*

شعارات الحراك الشبابي الفلسطيني: تشتت في الرؤية أم إدراك لواقع معقد؟**

عندما يشتد بؤس الواقع يزداد الغضب فتتولد الرغبة في التغيير. ويتجلى ذلك في توفر المصلحة والإرادة والاستعداد العالي للتضحية والحماسة الشديدة. وسريعاً ما يجد الناس أنفسهم وقد نزلوا إلى الشارع تعبيراً عن رفضهم لواقعهم المعاش، رافعين العديد من الشعارات التي يرونها منسجمة مع تطلعاتهم.[1]

وارتباطاً بتعدد القراءات للشعار الواحد، ولما للشعار من أهمية في صوغ خطاب تحريضي / تثويري، ثم في بناء رؤية تلامس هموم الناس وتساهم في تغيير الواقع، يثار العديد من التساؤلات عن قدرة الشعار على خلق حالة من الالتفاف الجماهيري: هل هو محل إجماع؟ هل يشكل أولوية؟ هل هو ضروري وملحّ؟ هل يؤسس لخطاب نقدي؟ وأخيراً هل يعكس حالة من التشتت في الرؤية، أم يمثل إدراكاً لواقع معقد ومركب ومتشظٍّ؟

قبل الشعارات.. الواقع الذي نعيش

منذ أن بدأ "سلام الشجعان" غداة انطلاق "العملية السلمية"، دخلت القضية الفلسطينية منعطفاً خطراً استدعى تغييراً في المهمات وتبديلاً للأولويات، فرافق "العملية السلمية" مشروع متكامل يقوم على صهر الوعي، ويفترض مغادرة مشروع التحرير الكامل والاكتفاء بالحكم الذاتي و"الدولة المستقلة" وبناء المؤسسات، ويستند إلى خطاب سياسي

* ناشط سياسي شبابي، رام الله.

** تألف الحراك الشبابي الفلسطيني من عدة مجموعات ما لبث بعضها أن انتهى، بينما استمر بعضها الآخر، والشعارات المقصودة هنا تعود إلى المجموعات الشبابية التالية: الحراك الشبابي المستقل؛ فلسطينيون ضد التطبيع؛ فلسطينيون من أجل الكرامة؛ جائعون للحرية. وطبعاً، لن نحيط بجميع الشعارات، وإنما ببعضها المركزي معتمدين على فاعلياته وبياناته.

اقتصادي اجتماعي وثقافي، حوّل الفدائي الذي "صنع من جزمة أفقاً" إلى رجل أمن يحرس منظمة دولية، أو مقراً أمنياً، أو يرافق ضابطاً آخر (فدائي سابق!) لتناول طعام العشاء في تل أبيب!

وهذا الخطاب المشوه أفرز وعياً مشوهاً ومفاهيم مشوهة، فأغرق الناس في الهمّ الحياتي المعيشي اليومي على حساب الهمّ الوطني التاريخي. ومع هيمنة هذا الخطاب المتسلح بالمال والهيمنة السياسية، وفي غياب "الحزب الثوري" القادر على فرض برنامجه، كانت "المعارضة" تُزج في السجن، فعرفنا نوعاً آخر من السجون يشبه سجون الوطن العربي في ظل الأنظمة البائدة والتي ستبيد.

إذاً، فقد تقزم المشروع الوطني ليصبح مشروعاً يخص "أقلية حاكمة"، ويضمن لها الاستمرار في "الحكم" ومراكمة المال، ولا يمثل أكثرية تكابد من أجل تجنب العوز والفقر كي تتمكن من مواصلة النضال. ولم نعد نعرف أي الثوابت الوطنية هي ثوابت، وهكذا، وبدلاً من أن نعيش مرحلة التحرر الوطني فُرض علينا العيش وفق وصفات البنك الدولي و"يو أس إيد" والممولين على اختلافهم، وتعايشنا مع سلطة بوليسية، وبات لزاماً علينا النضال من أجل إنجاز مهمات التحرر الوطني، وأن نزاوج باقتدار ووعي بين هذه المهمات وبين مهمات التحرر الاجتماعي الديمقراطي.

إن التشتت الديموغرافي للشعب الفلسطيني بحكم وجوده في أكثر من تجمع جغرافي يفترض اختلاف الدور النضالي لكل تجمع، فما يشكل أولوية لشعبنا في الجزء المحتل منذ سنة ١٩٤٨، يختلف عن أولويات شعبنا في المنافي أو في الجزء المحتل منذ سنة ١٩٦٧، الأمر الذي يعني ضرورة البحث في ماهية الدور النضالي لكل تجمّع بما يتجه في المحصلة نحو استرداد الحقوق ونيل الحرية. ويقتضي ذلك مراجعة شاملة لتاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ومسيرتها، وصولاً إلى التوافق على شعار واحد يعبّر عن تطلعات الشعب الفلسطيني أينما يوجد.

البداية:[٢] ١٥ آذار / مارس ورفع شعار إنهاء الانقسام عبر انتخاب مجلس وطني

إن أربعة أعوام من الانقسام الأسود بين "فتح" و"حماس"، وعشرين عاماً من الانقسام في الحركة الوطنية بين نهجَي التسوية والمقاومة، إن جاز التعبير، وما أحدثه ذلك من انقسام عمودي وأفقي طال المجتمع الفلسطيني ككل، وما شهدته الحركة الوطنية من ترهل وأزمات وانعكاس ذلك على مجمل القضية الفلسطينية، أمور كلها كانت كافية لطرح شعار إنهاء الانقسام في مطلع سنة ٢٠١١، وإن اختلفت المجموعات الشبابية في تشخيص الانقسام وآليات تجاوزه، بين مَن يرى فيه انقساماً بين حركتين يتم تجاوزه بتحقيق المصالحة بينهما، ومَن يرى فيه انقساماً في المجتمع الفلسطيني يستدعي تخطيه إجراء انتخابات للمجلس الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية بما يمثل الكل الفلسطيني (فلسطينيو ٤٨؛ فلسطينيو ٦٧؛ المنافي)، ويحقق المصالحة المجتمعية الشاملة. غير أن الكل كان متفقاً على ضرورة ترتيب البيت الداخلي لإنجاز استراتيجيا وطنية موحدة، تعيد الاعتبار إلى الرواية الفلسطينية الكاملة بعدما تعرضت للاجتزاء والتزييف، وترسم طريق التحرير.

ومما لا شك فيه أن الدعوة إلى انتخابات المجلس الوطني كنوع من بناء شرعية ديمقراطية كانت بمثابة تعويض عن

الشرعية الثورية التي اغتيلت في إثر مسلسل مدريد ـ أوسلو، فشرعية منظمة التحرير الفلسطينية كانت قائمة على الفعل الثوري، ولذلك حافظت على شرعيتها أعواماً طويلة. أمّا وقد ابتلعت السلطة الفلسطينية منظمة التحرير، وليس هناك سوى نهج "الحياة مفاوضات" ومن دون صفة تمثيلية تُنتزع عبر شرعية ديمقراطية، فإن الشرعية الثورية تكون قد سقطت، ولا بد من التعويض.

في البداية، طغى شعار إنهاء الانقسام من دون متلازمة انتخاب مجلس وطني، وهو ما جعل الشعار فضفاضاً ومن دون آليات، الأمر الذي مكّن طرفَي الانقسام، بسبب هيمنتهما السياسية وقوتهما القمعية، من أداء دور رئيسي في توجيهه إلى مصلحة كل منهما. وبذلك، بدا الشعار كأنه نوع من المماحكة السياسية بين قطبَي الحقل السياسي، فنأى الناس بأنفسهم عن المشاركة، ولا سيما بعد توقيع اتفاق المصالحة (٤ أيار / مايو ٢٠١١)، والذي تم تصويره في بداية الأمر على أنه نهاية للانقسام، على خلاف ما يثبته الواقع.

ولمّا تم رفد شعار إنهاء الانقسام بانتخاب مجلس وطني، اتخذ الحراك معنى آخر، فهو شعار جامع للكل الفلسطيني في الوطن المحتل والمنافي، فضلاً عن اتفاق جميع الفصائل عليه في اتفاق القاهرة (٢٠٠٥) ووثيقة الأسرى (٢٠٠٦)، مروراً بإعلان القاهرة (٢٠٠٩)، وختاماً اتفاق المصالحة (أيار / مايو ٢٠١١). وقد تقاطع هذا الشعار الجديد مع ما كان يدعو إليه بعض الفصائل التي انخرطت بشكل خجول في الحراك الشبابي، الأمر الذي أعطى المطلب زخماً ، على الرغم من محاولة طرفَي الانقسام حرفه عن مساره بتصويره مطلباً حزبياً للبعض الغاية منه إحراجهما. ومع ذلك، فإن الشعار بقي نخبوياً، أي أنه لم يتحول إلى مطلب شعبي كي يتم فرضه بقوة على أجندة الساسة الفلسطينيين. ولا نعتقد أن عدم قدرة الشعار على إحداث الالتفاف الشعبي ينتقص من أهميته، وإنما يستدعي مراجعة لأدوات العمل التي من شأنها إيصال المطلب إلى الناس. ولمّا كان بعض النشاطات في هذا الاتجاه يجري داخل الوطن المحتل والمنافي، فإن إيصاله إلى الناس يغدو مسألة وقت، وسيستمر الحراك الشبابي برفع ذلك الشعار: "الشعب يريد مجلساً وطنياً جديداً".

من يوم الأرض إلى النكبة والنكسة.. طلاق مع كرنفالية الاحتفال بالهزائم

مع كل مناسبة وطنية تعج الصحف ووسائل الإعلام (الرسمية) بدعوات تحض على إحياء تلك المناسبة في الصالات المغلقة أو الساحات العامة، وتحت رعاية "سيادة الرئيس" و"معالي رئيس الحكومة". وبغض النظر عن طبيعة المناسبة، فإنها لا تخرج عن تلك الأمكنة، بينما يتزاحم أصحاب الكلمات والخطابات على قراءتها أمام "الجمهور الحاضر"، ثم ختمها بالوعد الدائم بتحقيق النصر!

وقد أدرك الحراك الشبابي، منذ البداية، أن شعاراته يجب أن يسمعها الشخص الملائم في المكان الملائم، فنراه في يوم الأرض يتوجه إلى نقاط الاحتكاك مع الاحتلال، وفي يوم الأسير يتظاهر أمام السجون، وفي ذكرى النكبة والنكسة يزحف في اتجاه الحدود، على الرغم من وجود «الكرنفالات» ومنع السلطتين في أكثر من مناسبة الشبابَ من الوصول إلى نقاط التماس، كما حدث، على سبيل المثال لا الحصر، في يوم الأرض

في رام الله المحتلة، حيث أغلقت "سلطة فتح" جميع المنافذ المؤدية إلى مستعمرة "بيت إيل" في آذار / مارس ٢٠١١، وكذلك في غزة عندما منعت "سلطة حماس"، في السنة الماضية، المتظاهرين من التوجه إلى حاجز بيت حانون، "إيرز"، في ذكرى النكسة. ومن المعروف أن تحركات الشباب اتخذت طابعاً شعبياً غير عنيف، ومع ذلك فإنهم مُنعوا.

وفي هذه المناسبات كلها ، كانت الشعارات المرفوعة وحدوية وتحمل رسائل في أكثر من اتجاه: للساسة، لا تغتالوا فعلنا، ولا تقفوا في طريقنا؛ للاحتلال، سنستمر حتى دحرك؛ للأسير في يومه، وجودك في السجن هزيمة لنا جميعاً، وحريتك نصر جماعي؛ وللاجئ، لن نحيي النكبة في بيوتنا، وإنما معك على طريق العودة.

تلك أفعال مقاومة، تسترجع ثقافة المقاومة وتحييها من جديد، والشعب كثيراً ما احتضن المقاومة التي وحّدته، على الرغم من إنكارها وإدانتها والتحريض ضدها من طرف القيادة المتنفذة في منظمة التحرير الفلسطينية.

وبالتأكيد، فإن حراكاً من هذا القبيل من شأنه أن يستنهض الشعب الفلسطيني وقواه الحية، ويقطع مع مرحلة "لا مقاومة" التي يحاول أصحاب "العملية السلمية" تعميمها.

وللمعتقلين السياسيين في سجون طرفَي الانقسام كلمة

لكثرة الهموم التي يعيشها الإنسان الفلسطيني، كان لا بد من إعلاء صوت المعتقلين السياسيين، والمطالبة بالإفراج الفوري عنهم من دون قيد أو شرط، وهو ما ترجمه الحراك الشبابي في أكثر من احتجاج على هذه السياسة المقيتة التي تمارسها الأجهزة الأمنية التابعة لطرفَي الانقسام. وبالتأكيد، فإن شعار "اعتقال سياسي ليش وإحنا تحت رصاص الجيش" لم يكن يجتذب كثيراً من الناس لأسباب شتى، منها حالة الخوف من الأجهزة الأمنية، ولأنه يهم بشكل مباشر ذوي المعتقلين أنفسهم، لكنه يؤكد مسألة قيمية أخلاقية تفيد بأن الحرية كل لا يتجزأ، وبأننا كشعب تحت الاحتلال نفهم اعتقال الاحتلال لنا، لا اعتقال "الإخوة" بعضهم لبعض.

ضد التمويل والتطبيع: "لا تمويل ولا تطبيع.. فلسطين مش للبيع"

ثمة في الوطن المحتل تمويل يُغدق وتطبيع يستشري مع المحتل، فأينما يوجد التطبيع يوجد التمويل، وهذا ما يفسر حجم التمويل الهائل الذي يصل إلى الأرض المحتلة تحت مسميات عدة: منح، ومساعدات، وغيرها، والذي يفوق حجمه في العديد من الدول في إفريقيا وآسيا (أكبر مما تحصل عليه مصر والأردن واليمن والكونغو وهاييتي وجمهورية نبال ولبنان مجتمعة)،[٣] علماً بأن معظم هذا التمويل مشروط بنبذ ما يسمى "الإرهاب"، أي المقاومة في حالتنا الفلسطينية.

وفي الآونة الأخيرة، اشتدت هجمة المطبّعين الساعين لفرض وهم التعايش مع المحتل، إذ ما إن يُعلن لقاءٌ تطبيعي حتى تسمع عن عشرة غيره، فما كان من الحراك الشبابي إلاّ أن وقف في وجه التطبيع، فردياً ومؤسساتياً، وكذلك الممولين، وقد نجح الحراك في إلغاء العديد من اللقاءات التطبيعية، أو تلك التي تثار شبهات بشأنها.

ووصلنا إلى درجة أصبح فيها الشعار هو التالي: "الصبح بنسمع الخبر.. والعصر بنلغي المؤتمر"، كتلك اللقاءات المنظمة من طرف "تحالف السلام الفلسطيني"، وفريق "مبادرة جنيف"، وأصحاب "الكونفدرالية المشتركة الفلسطينية ـ الإسرائيلية".

وعندما يحيي الحراك الشبابي رأس السنة الميلادية الأخيرة من دون تمويل من أحد، وعبر جمع التبرعات من الحاضرين ومن أعضاء الحراك، ومن دون الحاجة إلى لقاء تطبيعي، ويوفر للطبقات الشعبية غير القادرة، حضور الحفلات في الفنادق الفخمة، فإنه (الحراك) يبعث برسالة فحواها أننا شعب لن نسمح بتحويلنا إلى مرتزقة ينحنون أمام أبواب المانحين، ولن نرضى بالتطبيع بديلاً من التحرير، وهو بذلك يذكّر الناس بماض جميل كان يشع بالمقاومة وبروح العمل التطوعي. إذاً، هي رسالة تقول للناس: بإمكاناتنا المحدودة، نستطيع أن نصنع فرحاً.

ضد المفاوضات: الحياة مقاومة

لعل ذروة ما وصل إليه الحراك الشبابي حتى اللحظة هو الخروج ضد المفاوضات أمام "المقاطعة" (مقر قيادة السلطة) في رام الله المحتلة، والتي اعتبرها الحراك "امتهاناً لكرامة شعبنا"، وموافقة ضمنية على استمرار الاحتلال في سرقة الأرض وتهويد القدس وزج أبناء وبنات الشعب الفلسطيني في سجون الاحتلال، ولا سيما بعد اتخاذ القيادة موقفاً بعدم العودة إلى المفاوضات من "دون وقف الاستيطان"، والإقرار بخط الرابع من حزيران / يونيو ١٩٦٧ كمرجعية لبحث قضية الحدود، وعودتها لاحقاً إلى المفاوضات في عمّان تحت مسمى جديد هو "لقاءات استكشافية"!

وقد لوحظ أن رفض المفاوضات يجتذب أناساً عديدين لم يجدوا فيما طُرح من شعارات قبل ذلك ما يعبّر عنهم، أي أن هناك مَن ينتظر تصعيداً في اتجاه السلطة كي ينخرط في التظاهرات. وفي هذا الشأن، فإن استمرار المفاوضات، واستمرار تنظيم الوقفات الاحتجاجية ضدها وضد نهجها العقيم، ينذران بأن كرة الثلج ستتدحرج حتى تُسقط النهج وأصحابه.

لقد هتف المتظاهرون: "أوسلو ولّى أوسلو راح .. وإحنا رجعنا للكفاح"، في دلالة واضحة على أن القيد المسمى أوسلو قد كُسر، وأن على "القيادة" أن تعي ذلك قبل فوات الأوان؛ أن تعي أن الحياة مقاومة لا مفاوضات.

ضد السياسات الاقتصادية: غلاء الأسعار وفرض الضرائب، غول يلتهم الفقراء

انخرط الحراك الشبابي في الاحتجاج ضد غلاء الأسعار وفرض الضرائب، ومن وراء ذلك ضد السياسات الاقتصادية النيوليبرالية المستندة إلى توصيات البنك الدولي والمرتكزة أساساً على النظام الاقتصادي القائم على السوق، وفق ما كرسه القانون الأساسي للسلطة. وفي الوقت الذي يمس غلاء الأسعار طبقات واسعة، ويهدد بعضها، فإن تثبيت الأسعار على ما هي عليه، والمضي قدماً في فرض الضرائب، سيخرجان الناس عن صمتهم وسينفجرون في وجه السلطة والاحتلال معاً، إذ رُفعت شعارات من قبيل: "يسقط اتفاق باريس الاقتصادي".

أخيراً ودائماً، عودة إلى الواقع بين الشعار الجامع وتعدد الشعارات

إن طبيعة الواقع الفلسطيني المركب والمعقد والمتشظي، توجب رفع العديد من الشعارات حتى لو لم تكن جامعة، ومن هنا، تعددت شعارات الحراك الشبابي لتطال العديد من المسائل: رفض اللجنة الرباعية الدولية لتواطئها مع المحتل؛ الاعتراض على الأمم المتحدة لمشاركتها، عبر عجزها، في فرض الحصار على قطاع غزة وعدم توفيرها الحماية لأساطيل الحرية؛ الاحتجاج على زيارة الرئيس اليوناني لمنعه أسطول الحرية من الإبحار؛ الاحتجاج على الفساد والاستبداد والخصخصة؛ التظاهر ضد الجدار والاستيطان وتهويد القدس؛ الوقوف إلى جانب العمال في يومهم العالمي؛ مساندة الحركة الأسيرة في إضرابها عن الطعام ومعركتها المفتوحة مع إدارة السجون؛ دعم الحركة الطلابية في مطالبها النقابية؛ مؤازرة الموظفين الذين فُصلوا من عملهم لدى القطاع الخاص؛ رفض الابتزاز الأميركي والضغوط الدولية؛ المطالبة بإغلاق المناطق الصناعية المشتركة "الفلسطينية ـ الإسرائيلية"؛ وغيرها كثير.

وبالتالي، فإن كثرة الشعارات المطروحة لا تعني بالضرورة تشتتاً في الرؤية بقدر ما تعني إدراكاً للواقع المعاش. وإلى حين الوصول إلى شعارات جامعة، فإنه يجب مواصلة رفع شعار انتخاب مجلس وطني جديد يمثل جميع الفلسطينيين، كمقدمة لصوغ استراتيجيا وطنية مقاومة، وأن يترافق ذلك مع حملة للتوعية والتثقيف كي يخرج الشعار من دائرته النخبوية الضيقة إلى مساحات أرحب، ويصبح مطلباً شعبياً بامتياز.

وبإيجاز، فإن المهمات الملقاة على عاتق الشعب الفلسطيني كثيرة ومتعددة، وتحتاج إلى نضال يومي دؤوب. ■

المصادر

١ نتحدث هنا بمعزل عن "القوى الثورية" التي تملك (أو لا تملك) برنامجاً شاملاً للتغيير، والتي تأخذ على عاتقها تنظيم حركة الناس وتأطيرها وتوجيهها انطلاقاً من دورها التثويري للمجتمع، وبالتالي تساهم في تصويب الشعارات، ومن دون الخوض في أيهما أسبق: التنظيم أم حركة الناس، وكذلك بمعزل عن التباينات الأيديولوجية والطبقية فيما بين الناس المتظاهرين.

٢ هذه هي البداية الرسمية للحراك الشبابي الفلسطيني الذي نزل في ١٥ آذار / مارس الماضي مأخوذاً بالثورات العربية التي ألهمت شباب لندن ونيويورك، فما بالك بإلهامها أبناء جلدتها في فلسطين المحتلة التي تمثل الأمة العربية عمقها الطبيعي والاستراتيجي. ونقول البداية الرسمية، لأن الشباب الفلسطيني كانوا دوماً السبّاقين إلى إشعال جذوة المقاومة عبر تاريخنا المعاصر، من خلال انخراطهم الواعي في الفصائل والأحزاب على اختلافها.

٣ هذا ما أكده تقرير لمركز بيسان للبحوث والإنماء، في أيلول / سبتمبر ٢٠١١. والتقرير متوفر في الموقع الإلكتروني للمركز: http://ar.bisan.org [المحرر]